

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حين جرت ببلد أبي العلاء منذ خمسة عشر عاماً ، قلت لركبي — على ميعة الصبا — وقوفاً بي على الشاعر الأعظم ، ومهلاً أطأطأ رأسي أمام ضريحه وأقرأ لروحه فاتحة الكتاب . تركتهم بباب المعرة تلاعبهم الرياح في هجمة ربيع ، ومررت بالقصارين فسألت سوقهم أين يكون مرقد الشيخ . فدلوني على بيته بعد الساباط . فأتيته ، وصرت إلى شاعري ، وجثوت عند قدميه . وجدت أبا العلاء زاهداً حتى في موته . كان قبره بيد العفاء . وملاً سمعى قبيل الظهيرة صبيان في كتبهم كانوا على مقربة منه يرتلون مع معلمهم آي الذكر الحكيم . كذلك كانت سور القرآن لا تفارق سمع أبي العلاء وهو رميم في ثراه .

وملأت صدري نسماً عليلاً من هواء المعرة وأنا أعود إلى صهي ، وسألت نفسي أين كان « وادي النسيم » ذاك الذي رق هواؤه وطاب ماؤه أيام أبي العلاء فكان يحوز فيه وينشد شعره عند أجارعه في الغزل الأول « بأمامة » فتموج المعرة لنسيبه قبل أن تموج دنيا العرب بحكمته وشعره .

حدثني راو حكيم بلد أبي العلاء أن رثياً كان يعرض لامرئ من أشياخ المعرة إذا هداً الناس وتصرم قطع من الليل . فكان يرى فتاة سايية حسناء ملفوفة بغلالة بيضاء ، تعميها هالة من نور تمضي في مسارب المعرة . كأنما تمشي مشياً رقيقاً وئيداً ولا تكاد تمس الأرض قدميها . كانت إذا سكنت كل نائمة في الحى تخطر بقدها المياس ، وغلايتها الساحرة تميل على جانبيها ، فتأخذ طريقها في صمت وهدوء إلى بيت أبي العلاء ، وهناك تطرق عليه الباب وتخطو إلى الفناء ثم تغيب في الضريح .

قلت لعمري تلك « أمامة » غانية أبي العلاء بقيت روحها بعده شريدة .

إنه هو الذى شردها فى آفاق زهده ، وهو الذى قضى عليها أن تظل بعده بتولا حتى ينهض من قبره .

كذلك أحبت أبا علاء — على ريتق العمر فأخذت بكتبه مدارس وممارسة وخطوت الشباب فإذا أنا بضاف النيل أكتب عن شاعرى . ولئن سبقنى الكتاب على كثرتهم فى التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده ؛ فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع . وهل كان أبو العلا الناقد المجتمع فى كل شعره وعميم نثره . لقد عرضوه فيلسوفاً وجلوه شاعراً ولكن لم يظهروه ناقداً . فلا على إذا جئت بعدهم أوفى صاحبى حقه منى ، وأنا ابن سورية التى أطلعتته ، وله على مثلى حق التأليف . وإن ابن الجلدة والأرض لأجدر بمواطن الدرس وأقرب لنبضات الشعور . ولقد أدلى القوم بالدلاء فلا أقل من سجل أرمى به فى الماء ، فرب ظمان بله مائى .

فإليك السلام أبا العلاء ، لقد اغتربت مثلك للعلم . إنك كنت بضاف دجلة تحن إلى قطرة من ماء المعرة ، وأنا بضاف النيل أحن إلى جرعة من بردى . ولو جئت مصر اليوم لأنستك روعة بغداد ، فلم تلق فيها الحساد ، فإن مصر تحبك ، ولو رجعت إلى عصرنا حقاً طششت لمن كتب عنك فيه فكأثر بك عباقرة الأمم . وقد صانتك حكومة الشام فهدت أرضك وبعثت مجدك ، وحدثت عليك مصر فنشرت أسفارك وجمعت أخبارك .

لقد نقدت الدنيا وسكانها ، والأكوان ودورانها ، فقندت الجماعات ، ونقرت فى العادات ، ولم ينبج من صيب نقدك رجل ولا نجت امرأة . لقد نقدت الأقبال والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، وعرضت شمائل الأوساط وصورت أخلاق الصعاليك .

فيا أيها الكوكب الذى لمع فى سماء بلادى فغمر الأرض بنوره فذاك كل طرف ناظر . أبداً تبقى مياسمىك خالدة ، لأن نقدك المجتمع يصلح لكل زمان ، وينزل فى كل مكان

التوطئة

١ - فن النقد ومهمة الناقد

النقد فن التقويم ، به يُعرض على التمييز كل ما تقع عليه العين ، ويسقط في السمع ، وتلم به الأحاسيس وتدركه العقول ، وقد عرفه الإنسان الأملح البصير .

وإذ كان التعميم والتبعض يعتريان النقد فقد صحح أن يتناول النقد نواحي منفردة من آثار الحياة في الثقافة والإبداع ، أو أموراً مجتمعة في مظاهر الجماعات ، فكان نقد الأدب واقعاً على منتج القرائح وثمار البيان في المنظوم والمتنوع ، وكان نقد سائر الفنون معنياً بأنواعها من موسيقا وغناء ونحت وما إليها . وقد بدا نقد العلوم وأنواع المعارف الباقية متصلاً بإظهار نقصها وتماها ، وخطئها وصوابها . وكان نقد الجماعة متناولاً آثار أفرادها في مرافقهم ومعايشهم وميولهم وأعمالهم وما تبدع أفكارهم وتصنع أيديهم وما يكون بينهم من مظاهر الاجتماع في أشتات صفاته ، وعديد أشكاله .

إن الكائن الجميل مراد الناقد ، ولذا فقد قاسوا عليه أضرابه وأشباهه ، وأبانوا به معاييرها ، فتوجه النقد بذلك إلى نشدان الكمال ، والتماس المثل العليا ، وأصبح هو الرقيب الذي يروى بميزانه الأمور ، ويمحص بأحكامه الأشياء فيفرق بين الجيد والدون .

يخشى الضعاف مياسمه الكاوية ، فيترهبون الشر بصاحبه ، وقديماً اصطلمحت على الناقد عداوات الناس ، لأن الاعتراف بالعيب والتقصير نقيصة ما تزال عالقة في سجايا الإنسان . فما يكاد الناقد يظهر للمنقود مثلبة من مثالبه حتى يستشرى هذا ويشور ، أو يضطغن ويكيد . وقد ينجل إلى المنقود أن مجده قد هوى من ذراه ، وأن الكمال له وحده ، وأن ليس للنقص إليه

من سبيل . وتنشأ الخصومة بينه وبين الناقد حتى تصير عداوة لا يمحوها
كر السنين

عرف العرب الجاهليون النقد على سداجته وبداءته ، فلم يكن عندهم فنًا
يحتذى . كانوا إذا أعجبوا ببيت لشاعر قالوا هو أشعر الناس ، وكثر في أخبار
أدبهم هذا الضرب من النقد ، يحدون به إذا أنشد بعضهم بعضاً طرفاً من
الفرائد ، وأفضت بهم الأسمار ، إلى مطارحة الأخبار ، ورواية الأشعار
كالذي كان من عمر بن الخطاب « لما خرج ليلة يمشي ويده على كتف ابن عباس ،
فقال أنشدني لأشعر شعرائكم . قال له ابن عباس ، ومن هو » (١) فأعلمه عمر
أنه زهير بن أبي ساهى لأنه لا يعاقل بين البيتين ولا يتبع حوشى الكلام
ولا يمدح الرجل إلا بما فيه . ويمضى هذا الضرب من النقد في حياة الأدب
العربي القديم ، ينفرج تارة ويضيق أخرى حتى يكون العصر العباسي فيظهر
النقد في شكل نظم وقواعد ، ويكون للجاحظ طريقة فيه وعناية بموازن
بيانية يزن بها في كتابه (البيان والتبيين) . ثم ينطلق النقد فيحتل علوم
البلاغة . ويجرى على مقاييس بدأت كأول الغيث ثم انهملت . فإذا أبو هلال
العسكري في الصناعتين نظار نقار يصنف طرائق النقد ، وابن رشيق يؤلف
في صناعة الشعر ونقده . وإذا قدامة بن جعفر ينقد النثر في كتابه فيحدث في
النقد حدثاً يأخذ فنونه ويسمى أسماءه ، ويجعل نفسه أول من يسن هذه
النسبة في الأدب ، إذ كان يرى الجاحظ في كتابه « البيان » مخطئاً في تسميته
ولذا فقد سمي هو كتابه (نقد النثر وكتاب البيان) فقال (٢) : « فإني لما كنت
في معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المنبسطة أسماء تدل عليها
احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها ، وقد ذكر في خطبة
كتابته هذه عيوب النقد لدى الجاحظ وأنه لا يصلح لشرح البيان ونقده فقال

(١) رسائل أبي العلاء . الطبعة الأدبية بيروت ١٨٩٤ ص (١٣٩) .

(٢) نقد النثر لقدامة . طبعة مصر ١٩٣٨ . خطبة الكتاب .

وهو يريد الجاحظ وكتابه : « لم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان وكان عند ما وقفت عليه غير مستحق لهذا الذي نسب إليه » . وقد انخرِف قدامة بن جعفر في كتابه إلى أساليب البيان فيما يتعلق بالمعاني والمباني ولم يقف عند قواعد النقد على مصطلح عليه الحديث .

ونبغ في العربية شعراء انقسم الناس من حولهم بين معجب وثالب ، ومادح وقادح ، ولئن كانوا في أيام بني أمية قد اقتصروا في مجالس أدبهم على الميل إلى شاعر دون آخر فهم في أيام العباسيين قد ألفوا في ذلك الكتب وصنفوا الرسائل . فهذا الأمدى يضع الموازنة بين البحتري وأبي تمام ويمضي فيها على قواعد من النقد ، حتى إذا ظهر أبو الطيب المتنبي في نطاق عائبه ومحبيه ؛ فلأ الدنيا وشغل الناس ؛ لاث القاضي الجرجاني عمامة الحكم على رأسه وتوسط بين المتنبي وخصومه ، فكان بكتابه هو الضارب لأحسن أمثلة النقد العربي في الأدب إلى أيامه .

ثم اتسعت آفاق هذا الفن في ثقافات الأمة العربية فتناول بقواعده مختلف العلوم . وصُنفت فيه طبقات العلماء والنحاة والمحدثين . حتى إذا بلغت العربية هذا الزمن الحاضر تفتحت بهذا الفن الأذهان على قواعد أسد أحكاماً ، وأقوم سيلاً ، ومضت فيه على غرار الآداب الغربية ، فقد عرفته الأمم الغربية في آدابها وحياتها في مقولات الفلاسفة اليونان ، ثم نما واشتد حتى ذهبت فيه المذاهب . وكان له الفضل العميم في تبيان المحاسن وتقويم الزلل ، فغذته الجامعات العلمية والندوات الأدبية منذ أنشئت في ديار الغرب . ولم يخل أديب أو مؤرخ من أن يُنال به أو أن يتناول منه قسطاً ، حتى أتى فيه على الغربيين حين من الدهر فصار يتمنى صغار الكتاب كبارهم أن ينقدوهم ليشيع ذكركم ويعظم شأنهم ويطير لهم صيت ، وقد اتفق لتاريخ الأدب العربي مثل ذلك كالنبي فعل بشار عندما هجا الأخطل وقال لورد عليّ لـكنت أشعر الناس

لقد كان في هجمة الآداب العالمية قبيل هذه الحرب من إشادة النقد بآثار الآداب والعلم ما صارت معه قيمة الأديب أو العالم في الغرب مقرونة بإقبال النقد على آثاره ، فأى أثر لم يتداوله النقاد بأقلامهم مشرحين ومحللين كتب له الكساد . فصارت عندهم نباهة الأثر باعتناء النقد به وإقبال الناقدين عليه حتى أسست للنقد في أمصارهم ندوات وجمعيات ، وأنشئت صحف ونشرات ، وأصبح للمصحف منشئون للنقد خاصة .

هبّت في الغرب رياح النقد ، وراجت سوقه حتى حسبتها كسوق الصيارفة فيما يتداولون من الدراهم والدنانير . وللصيارف في لسان العرب نقد الدراهم وتميزها لمعرفة جيدها ونفي زيفها^(١) .

يقول « هنرى بيدو »^(٢) ، وهو من كبار النقاد المعاصرين في فرنسا : « كان لفن النقد حقاوة في أوربة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وكان كل ناقد يتبع منهجاً يختطه لنقده ، فكان « سنت بوف » يعنى بدراسة الأشخاص مع آثارهم فعد بذلك أكبر نقاد العصر الفئات . وأطل على الآداب المعاصر في فرانسة (برونثير) و (پول سودى) بنقدهما الفلاسفى الجدلى . وتوفر (إميل فاغيه) على أدب الرديحة كلها فألم بأوجه النشر والشعر منذ نهضة الآداب الفرنسى حتى أيامه . واشترع (لانسون) للنثر شرعة في فن النقد . ومضى (إيدمون جالو) معتقاً في النقد مذهب الجمال وعلم النفس . ولقد كان النقاد الكلاسيكيون يتخذون الجمال مقياساً في النقد ، فلما هب الإبداعيون بأدبهم وقالوا إن الجمال نسبي خفت موازين النقد المدرسى .

وتدرج فن النقد على يد (تين) فخرج من نقد الأسفار (إلى الجماعة) . فقد عني هذا الناقد بحياة المنقود وبيئته التي عاش فيها ودمه الذي سرى في عروقه . ومتى وسمنا بمذهبه هذا ، الآثار والأشخاص ، بان لنا صواب طريقته

(١) المصباح واللسان .

(٢) المعلمة الفرنسية لأبراهام الجزء السابع عشر قسم (C) مجل كلام (هنرى بيدو)

على النقد الحديث في فرانسة .

في تحليل الأعراق ودراسة الجماعة وفترة الزمن التي عاش فيها الأديب .
على نحو ما سأمضى في هذه الرسالة في دراسة المعرى وعصره وجماعته مظهرًا
مياسم نقده للجمتمع وأسباب هذا النقد ونوازه وألوانه .

أما هموم النقد وتكاليفه فعبء ثقیل لا يضطلع به إلا الأقرام الأشداء
من العلماء الذين انبسطت آفاق وعيهم وإدراكهم وأعدوا للنقد ما استطاعوا
من عدة ، وخلت نفوسهم من النجيزة ، وصفت عقولهم للتسديد وقلوبهم
للإصلاح . ومن لك بالحر الذي ينقد الأمور وهو سليم الطوية ، مجرد
من الدخائل والآهواء .

لقد نظر فن النقد إلى نوازع النفوس الناقدة ، وعرف قلوب الناقدين
فشد النزاهة والنباهة في الناقد . والمرء لا يستطيع أن ينقد الأثر وصاحبه ،
والجماعة وبيئاتها إلا إذا كان متجرداً من ميول نفسه . فكيف يستطيع ناقد
أن يظهر حقيقة المنقود عارية من الزيغ والضلال ، ومنزهة عن الغرض
والتحامل . فكان من أخلاق الناقد التجرد ، بين يدي النقد ، عن كل ما يحول
دون صحة الرأي وسداده فيه .

لقد استهزأ المجادلون بهذا المذهب الصوفي في النقد ، والحق أننا نحن
البشر طيور سجنينة في أقفاص ميولنا ونزعاتنا . فنذا الذي يستطيع أن
يخرج من إهاب جسمه روحاً صافية نزاعة للحكم الأسد الذي لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه . وقد اشتط (أناطول فرانس) فقال (١) :
«النقاد الحاذق هو الذي يروى حوادث نفسه في ظلال الأثر الذي ينقده ،
وانقسم بذلك النقد إلى نوعين : النقد الموضوعي ويعنى به في نقد الآثار
موضوعية في بعد عن نوازع الناقد ، فلا صلة لها بميله وطباعه وتأثر نفسه .
وهو نقد منفرد أحسب أنه لن ينهض عليه أدلة ، ولا يكون له حول أو طول
لأنه نقد مثالي له قواعد وأصول قد ينفي الأخذ بها ما في نفس الناقد من فتن

الطبائع ووسائل الأفكار . فمن الذى يستطيع أن ينقد الأثر والمؤثر دون أن يمدح نفسه فى خلال نقده . إن نقد الفيلسوف الزمىيت لعينية عمر بن أبى ربيعة التى وصف بها اجتماعه بهند وصويحيباتها ، ونظره فى همزية أبى نواس فى الخرة ، ليدفعانه إلى الحميدة عن جدد الأحكام فيتنكب طريق الصواب ويمضى بالتعامل والانتقاص ولا يرى أثر الشاعرين بعين التجرد والبراءة للفن وحده . والنوع الآخر من النقد هو النقد الذائق ويُقصد به أن يتناول الناقد الأثر المنقود حسب ما يخالجه من الحسن نحوه وما يبدو لديه من رأى خاص عملت فيه عوامل الذوق الشخصى وصلات الميل الفنى . فنقد الأديب المسرحى المعاصر للشعر الجاهلى قد يختلف فى ذلك عن نقد الأديب الذى تمرس بهذا الضرب من الشعر القديم وأحبه .

وخير النقد ما كان آخذاً بطرفى المذهبين بقدر مقبول معقول . فلا يهجم الناقد بسلاحه ودروعه على المنقود ، ولا يهيم بحب آثاره فتخفى على عينيه العيوب . وسأبين على صورة هذين المذهبين كيف أخذ أبو العلاء فى نقد المجتمع وأى الاسلوين فى النقد قد اتبع .

ب - بواعث نقد المجتمع عند المعرى

إن من الأرض طبيعة الأدب . ومن البيئة منازع وصفه . فما يكون أدب فى العراق ؛ منطلقاً من عوامل التأثير ، لا تحتويه أرض غدت أصحابه وزمان أظلمهم ومكان قد احتواهم .

لقد أصبحت دراسة الأدب فى أيامنا منوطة بمقاييس علمية . وكان من فضل العلم على الأدب أن اتخذت منه طرائق النقد ، تعلل بها أطوار الأدباء ، وتُسبر بمقاييسها أغوار آدابهم وثقافتهم .

فاطبع من المعرسة أبا العلاء المعرى ، وانظر أكانت نشأته وحياته سبباً فى نقد الجماعة وهل كان زمنه وتجاريبه عاملين على إذكاء هذا النقد فى نفسه وباعثين على تعهده وإثماره .

وصف المعرة أدباء ورحالون فقالوا إنها دار مقامة ، طبيعتها نزهة ،
ومتوجها خير ، وأهلها في أمن ورغادة . ونظموا في وصفها الشعر (١)
وافقتوا في الخبر . وبحسبنا أن نعدو عنهم لأنهم ألما بها عابرين . ولم ينزلوها
مقامين . فكلام المعري عليها انقع للغة ، وأشنى للبحث ووصفها المعري وكشف
الستار عن يدس أرضها في أيامه ، وفقر أهلها ، واحتباس مائها فقال (٢) :
« وهذه جمل من صفة المعرة هي ضد ما قاله الله عز وجل مثل الجنة التي وعد
المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن . أسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ،
المورد بها محتبس ، وظاهر ترايبها في الصيف يدس . ليس لها ماء جار ، ولا تغرس
فيها غرائب الأشجار . وإذا أبرز لأهلها ذبح يؤمل به لتسليم الربح ، تحسبه
صبغ بخطر ، فكأنما يرمى به هلال الفطر . وقد يجيئها وقت يكون فيه جدى
المعز كجدى الفرقد ، ومثل حمل السكواكب حمل النقد . ويبكر فقيرها على
الهداية قبل أبي الفرخين ابن داية . حتى يقف بيائع الرسل فكأنما وقف
برضوان ، يستوهبه ماء الحيوان . فإن سبقه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً ،
ولا يجد سهمه صائباً . أما النابت فإذا أنبذ عند غيرنا بالعبر ، حسب هنا
سبائك التبر » .

فكيف تكون المعرة لأبي العلاء مقام خير ونعمى وحالتها متربة ، ودارها
مسغبة ، لا ماء فيها ولا شجر ، يهل أهلها ويفرحون لسخل ينتج ، وحمل
يولد يكون عندهم بمنزلة السكواكب في سحق السماء . ينالونه بالأنظار
ولا يذوقون لحمه . وقبل منباج الصباح يهب فقراء المعرة في الغسق إلى بائع
اللبن والطيور في وكناتها ، فإذا أدركهم الصباح ، لم يبلغوا لبناً لنفاده ،
ففاتهم الغذاء .

وذكر أهل المعرة في رساله المنيع ، إلى أبي القاسم المغربي فوصف جشوم

(١) أورد ياقوت الروى شعرا كثيرا للشعراء الذين زاروا المعرة ووصفوا مباحجها في
الجزء الثالث من « معجمة في ترجمته لأبي العلاء » .

(٢) رسائله طبع أ كسفورد لرجليوث ١٨٩٨ ص (٥٥) .

المصائب عليهم وطغيانهم في الضلال حتى فشل مصالحهم ، وعى فصيحتهم من هول ما يرى^(١) فقال : « وقد نزلت بهم خلة من خلال الأشقياء والكفار . وإنما غرقوا في لجج التبانة فصمتوا ، وسمعوا صواعق الإبانة خفتوا فقلتم كاتبهم عود الناكث ، وجواب بليغهم حيرة الساكت »

ثم اتبع في هذه الرسالة عن أهل المعرة بقوله^(٢) : « وهم في هذا الصقع كأسنان المسارح ، فقد أدمى الخنف وطء القف ، وذهب الخارب بذى الغارب ، فنبهنا بعد وصفه إياهم بأن جسومهم قد دقت من الوهن والهزل حتى صارت كأسنان المشط وبلغ بهم الفقر أن ساروا حفاة بغير نعال فدميت أقدامهم من وطء الرمال . وذكر الفتن والقتال ، فكان هذا سبباً آخر زاد في نزعته لنقد المجتمع ، إذ كانت المعرة دار قلاقل وفتن في عهده . كما سأتى على ذكره في الحياة السياسية زمن أبي العلاء في المعرة — فقد وصفها أبو العلاء وهي في أيدي الاضطراب في رسالته إلى عبد السلام البصري عندما كان به شوق إلى العراق يتمنى لو كانت ثمة داره فقال^(٣) : « ومستقرى معرة النعمان ، والفتنة عندنا صماء ، طعان بالمران ورهاء ، إنما يجيء الصيف ، وقد سل السيف ، ولو قدرت لم أقدح إلا بمرخ ، ولا سكنت بلداً غير السكرخ ، ولكن فضوى معقول ، فرحم الله لبيداً حيث يقول :

لما رأى لُبَيْدُ النُّسُور تطايرت رفع القواطم كالفقير الأعْزَل
ورغب أبو العلاء أحد أصحابه بالحج فراراً بنفسه من قلق المعرة وويلاتها فقال له :^(٤) « والحجاز مكان معتزل لا يلحق به ما نحن فيه » .

كذلك عاش المعري فترة فتنة بالمعرة فكان الروم يغيرون من أطراف الثغور على شمالي الشام ، وينتاشون المعرة فيما يناوشون حتى ذكر ياقوت أن

(١) رسائله بيروت ص ٢١ ١٠٢١ كسفورد ص ١٠ .

(٢) رسائله ط بيروت ص ٢٤ واكسفورد ص ١٠ .

(٣) رسائل اكسفورد ص ٤٧ .

(٤) رسائله ط اكسفورد ص ١٢٧ .

المعرة دخلها الفرنج بعد موت المعري بسنين حتى اضطّر نفر من أهل أبي العلاء للنزوح إلى (شيزر) القريبة من حماة ^(١) . وقد ذكر أبو العلاء في شعره وصف هذه القلاقل والحروب في الشام والعراق وأن الناس على قدم وساق في هذه المفاتن . لا يحلون حجزهم وقد شدوا عليها السلاح :

والشأم فيه وقود الحرب مشتعل يُشَبِّهُ القومُ شدَّتْ منهم الحُجُزُ
وبالعراق وميض يستهل دماً وراعد بلقاء الشر يرتجس ^(٢)

فإذا عرفنا الأرض والعهد . وحملهما المعري على نقد المجتمع . تلقانا عامل آخر هو أشد لصوقاً بنزعته هذه ، وأكثر حملاً عليها . فلقد أصابه العمى صغيراً فبعث في نفسه هذا الليل المقيم على عينيه ثورة على الحياة . كان يعرف أن العمى مقيت ، لكنه هون عليه أن أخفى عنه الوجود . وما في الحياة ما يؤسف على فقد النظر إليه . فكان يحمد الله على العمى كما يحمد غيره على البصر ^(٣) . وكأنه كان يشد :

قالوا العمى منظر كرهه قلت بفقدى لكم يهون
والله ما في الوجود شيء تأسى على فقدته العيون

على أن في نفسه من العمى المأدنياً ولو خادع الناس برضائه به واحتسابه . وواجه الحساد حين عظم قدره ، وطارصيته فلقى من عداوات حاسديه ضروباً . فسار في طريق خلوده على شوك . وتالب الناس من حوله يشلبونه وينحتون أثلته ويتقولون على لسانه الأقاويل ، فأعرب عن ذلك بقوله :

حاول إهواني قوم فما واجهتهم إلا ياهوان
تحرشوني بسعائاتهم فغيروا نية إخواني
لو استطاعوا لوشوا بي إلى المريح في الشهب وكيوان ^(٤)

(١) معجم الأدباء لياقوت ط الباني بمصر ج ٣ ص ١٢٠ .

(٢) اللزوميات ، محروسة ١٨٩١ (٣) معجم الأدباء ص ١٢٩ ج ٣

(٤) أوردها معجم الأدباء ونكت الهميان استشهاداً على اضطهاد القوم له ولم تدرج فيها

رأيت من اللزوميات . وذكرها الراجكوتي في فوات شعر أبي العلاء

كان الناس يهرونه ، كما قال الفرزدق عن جرير ، فوجدوه لهم قادحا .
فهم الذين جعلوه عياباً يتسقط مولاتهم ، ونقاراً ينقد أخلاقهم وعاداتهم .
وطمح بعزيمته إلى آفاق الأسفار وبغية في رؤية دار السلام^(١) فركب
إليها العيس وخفق آباط الإبل حتى بلغها ، وكانت بغداد زمنه محجة العلم
والآداب ، ودار العزو السؤدد . ثياب ظنه بها حين تنكر له نفر من علمائها ،
وشرعوا بانتقاصه . كما يذكر في نقده للمجتمع البغدادي — فحن في بغداد
إلى موطنه . ولا حنين الأم الرؤوم إلى وحيدها البعيد ، فإذا علم بلبع البرق
تشوف ظامئاً إلى قطره من ماء المعرة ، وندم على ما فرط في جنب بلاده
يوم غادرها حتى تلقاه الحساد في بغداد فقصال يشرح حال سفره ،
وضياع أمله .

أخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا أخبرتك بمحال
أنبئكم أني على العهد سالم ووجهي لما يُبتذلُ بسؤال
وأن تسمت العراق لغيرما تيممه غيلانُ عند بلال
فأصبحت محسوداً بفضل وحده على بعد أنصاري وقلة مالي
ندمت على أرض العواصم بعدما غدوتُ بهافي السرورم غير مبال
وما بين الفرات وجلق إلا المعرة وحلب وغيرهما من ديار الشام . فهو
يخبر إخوانه فيها بحفاظه على عزة نفسه ، وأنه لم يأت العراق متكسباً كالشاعر
(غيلان ذي الرمة) عندما قصد بلال بن أبي بردة الأشعري بالعراق ، فدحه
مستحيحاً . فعاد أبو العلاء إلى المعرة مثقلاً بالهموم وزاد في جفيعته وأحزانه
أن وجد أمه قد ماتت قبيل قدومه . كذلك عاد أبو العلاء إلى المعرة قانطاً
من الدنيا وأهلها ، فقيراً منفضاً . فلم يكن أسكن لقلبه ، وأشقى لداء يؤسه
غير العزلة . فكتب رسالة يعالنها سكان المعرة^(٢) عن رغبته بمعزله الذي
أنقاه منذ عهد بعيد .

(١) رسائله بيروت ص ٧٨ وأكسفورد ص ٣٢ .

(٢) رسائله بيروت ص ٨١ وأكسفورد ص ٣٤ .

بسبب كل ذلك خلد المعري إلى العزلة بجسمه ، ولم يحبس روحه وعقله وإنما بقيا يطوّقان به في أرجاء الدنيا ، ويشرفان على العالم أجمع . فكأنه بات في « كهف أفلاطون »^(١) يعاين الحقيقة ويعرضها على التنقيح فيبين مثالها ، ويكشف عن عيوبها وينقد المجتمع بمياسم كلوية . بل أحسبه إنساناً هاجمته صروف الزمان : فيها الفقر الذي اعترى البلد ، والعيش المروع والعمى المحزون واضطهاد الناس وتآلبهم وخيبة أمل في سفر ، وموت والدة رحيمة ، ومظلمة حكام وأمرام .

هاجمته هذه الغوائل والآفات كلها . فليجأ إلى معتزل . كما يلجأ الهارب من الأخطار . واتخذ محبسه جُنة وكنيسة ، ثم جعله دريئة وحصناً ، ينضج الناس من كواه بنبال النقد ، ويرميهم من أسواره بالمساوىء والمثالب .

وإني لأرى اعتزاله فراراً من الواجب . فإن باقعة مثله لا تجود به العصور إلا على هاماتها ، جدير به وقين ، أن يعيش في بهرة الحياة الاجتماعية ، وأن يحيا في صخب الناس ، يتمرس بآفات أدوائهم وينصب وسطهم ميزان نقده ، رافعاً عقيرته في زجرهم وردعهم ، موجهاً نداءه لإرشادهم .

فلئن كان نقده للجماعة بغية إصلاحها ، فإصلاح المجتمع لا يتم بقصائد تنظم ، ورسائل تحبر ، وأسفار تؤلف . فما القول نافعا ، وما القلم مجدياً بغير أن يقوم العمل وينهض الفعل .

ج — طبيعة نقده للجماعة

يقول ابن خلدون^(٢) : « والناقد البصير قسطاس نفسه ، وابن خلدون نقادة اجتماعي وضع مبضع نقده على أدواء العصور فأصاب بقوله هذا

(١) جمهورية أفلاطون . الترجمة العربية طبعة المقتطف ١٩٣٩ ص ١٨٤ .

(٢) المقدمة : خطبة السكتاب .

السكبد من فن النقد . فالناقد عنده إنما يجعل نفسه ميزانا للنقد . وذلك شأن أبي العلاء . فنفسه هي قسطاس نقده وبهذا أمكن أن أقول : إن أسلوب المعري في نقد الجماعة يأخذ من (النقد الذاتي) بأكثر مما يأخذ من (النقد الموضوعي) .

كان نقده رهن محبس نفسه . كما كان جسده رهن محبس داره . نقيم من الأغنياء لأنه عاين الفقر وألم حين عضه سفره ، وكابد قلة المال والإعسار في مقامه . ونقد الحكام والولاة ، إذ اصطفى بنارهم في ظلم الرعية واستباحة مالها ، وتركهم مصالحها ، وثلب المرأة ونظر في معائبها لأن في طبعه صدوقا عنها وفي طبعها عزوفاً عن مثله . وتناول الزواج فنقده ، وشرح قضاياها فهو لها لرغبته عن الزواج وزهادته فيه . ونقد منذ كمولته من يذبح الحيوان ويأكله لأنه أبه لهذا عند شيب الذوائب وعند اعتناق مذهب أكل النبات . ولم يكن قبل رحلته لبغداد ينقد أكلة اللحوم وما نتج من الحيوان . ومن يدري ؟ فربما كانت الفراريج يومئذ أشهى ما يتحلب له شذواه .

وعلى الرغم من أنه قال في رسائله إنه فكر في العزلة قبل الاعتزال بسنين طويلة فإن رحلة بغداد قد أحدثت في نفسه إنقلاباً فبدلت من طبعه وشعوره فكثير بعدها تشاؤمه وقل تفاؤله . ولقد كان قبل هذه الرحلة على شيء من النقمة على الحياة والنقد للجماعة . فداليته ولا ميثاه في « سقط الزند » مليئات بالعبرات والشككات ، ومر النقديات .

ولسكن حين نظم المعري لزومياته نسجها حلة نقد تخلعها على منكب المجتمع لباساً لا ينضوه أحد سيجيس الليالي . لأن طبائع الناس وأخلاقهم ، وصفاتهم وسجاياهم ، ما زالت كما هي منذ كانت الدنيا . ومن هاهنا يخلد المعري . فتظل خطرات نقده لجماعة عصره صادقة على من جاء بعده من الجماعات .

ولتحديد نقده للمجتمع ينبغي أن نتعرف إلى كل مظاهر الحياة في المعاش ،
والعادات والمرافق والصلات مما جعله أبو العلاء ميداناً لنقده الاجتماعي ،
ومنبسطة آرائه في الناس .

د -- منابع نقده

للرأة والنسل والزواج

لقد ارتاب (مارجوليوت) المستشرق الانكليزي بما يذكر المترجمون
لأبي العلاء من أنه لما اجتاز باللاذقية في شبابه نزل في دير كان فيه راهب له
علم بأقوال الفلاسفة وآرائهم ، فتلقف أبو العلاء تعاليمه فأحدثت هذه التعاليم
في نفسه معتقدات وشكوكاً^(١) .

وعلام يرتاب (مارجوليوت) بلا حجة . ومصدق تلقى المعرى لتلك
الأقاويل الفلسفية وانطباعها في صفحة ذهنه — التي كانت لا تزال بيضاء دون
آثار الثقافة التي ثقفها فيما بعد — مانجده في شعره وأفعاله من آثار الفلسفة
اليونانية وما شاع زمنه من المعتقدات الفارسية والآراء الهندية .

لم يرتجل أبو العلاء آراءه ارتجالاً في الفلسفة والحياة والمرأة والزواج
والنسل وتحريم أكل اللحم وطرح الشهوات واتخاذ الزهد خلة ، وإنما صدر
بها عن منابع موجودة في الأفكار العتيقة الرومية والعجمية .

وأستطيع أن أقسم لقاح أفكاره ونزعاته في ذلك على الشكل الآتي :

(١) أفكاره التي وصفت بيونانية .

(٢) أفكاره التي بدت بفارسيته .

(٣) أفكاره التي اتصلت بهنديته .

من اليونان فيلسوفان مشهوران عرفهما العرب . وذكرهما الشهرستاني
في كتابه (الملل والنحل) أحدهما (ديوجينيس الكلبي) والثاني (فيثاغورس)

(١) مقدمة مرجوليوت استاذ العربية في جامعة اكسفورد لرسائل أبي العلاء . ص ١٧

أما الأول فكان مذهبه الزهد والتقشف والقناعة بشظاف العيش . كأن يقول بالتزين الروحي وعنده^(١) أن « عمارة الذهن بالحكمة ، وجلاء العقل بالأدب وقمع الشهوة بالعفاف ، وردع الغضب بالحلم ، وإماتة الحسد بالزهد ، ورياضة النفس حتى تصير مطيعة قد ارتاضت حيث صرفها فارسها في طلب العليات وهجر الدنيات » .

وهي صفات حرص المعري على الاتصاف بها منذ عزلته . وكانت في نيته قبل ذلك كما يذكر في رسالة اعتزاله^(٢) .

مضى المعري — وفق فلسفة ديوجين الأخلاقية — فعمر ذهنه بالحكمة فنظم اللزوميات وهي مسرح للحكمة ومحشر للعظات . وجلا عقله بالأدب فألف كتباً وصل إلينا بعضها فوجدناه جلاء للأفكار في أرفع أدب وأجل بيان . وترك الشهوات فأثر البعد عن المرأة . واتخذ العفاف وقاء . وعاش بقية عمره زاهداً مقتول الحسد . وقد أكمل رياضة نفسه فصرفها حيث صرفها وكان هاجراً للدنيات .

وبدت في حياته وأقواله نزعات (فيثاغورس) فكان يكثر من ذكر الروح وصفائها وانطلاقها وكدر البدن وأخلاقه ، ويشوق النفوس إلى دنيا أصفى من هذه الدنيا وأعلى .

وأكاد أجد فلسفة المتقشفين مثل (مارك أوريل) و (إبيكتيت) مبثوثة خلال اللزوميات جميعها ما خلت منها صفحة من تلك الصفحات .

أما أثر العقيدة الفارسية في أفكار أبي العلاء فقد ظهرت جليلة في كرهه الزواج وبعده عن ذبح الحيوان لئلا يألم ، فإن أصحاب (ديسان) الذين تسموا بالديسانية وهم فريق من مجوس الفرس القائلين بالمشنوية في مذهب النور

(١) الملل والنحل للشهرستاني طبع لندن ١٨٦٢ وقف عليه وليام كويتون أمين المخطوطات

في المتحف البريطاني ، المطبوعات الشرقية — ص ٣٢٢

(٢) سيأتى ذكرها في ص (٥٥) من هذا الكتاب .

والظلمة ، والخير والشر قد (١) « حكى عنهم محمد بن شذب أنهم يرون المناكحة حراماً ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم ، وهذه آراء أبي العلاء . فقد نقد الزواج وذمه وقال بعدمه فيكأنه حرمه وجرى مذهبه في عدم ذبح الحيوان لئلا يألم . ودافع عن رأيه هذا في رسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي فقال (٢) :

« ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم ، لأنها لا يوصل إليها إلا بإيلاام الحيوان » . وأكثر من هذه الرأفة بالحيوان في لزومياته . وكان مذهبه في ذلك يمت إلى مذهب فئة مجوسية أيضاً ظهرت أيام المأمون وكان فيها معشر يسمون بالمصلين (٣) « قالوا إذا اجتهد الرجل في العبادة وترك التغذي باللحم ورفض الشهوات النفسانية الحيوانية يصفي جوهره » . وكذلك فعل أبو العلاء فقد اعتزل الناس متوفراً على العبادة فألف الفصول والغايات في ذكر الله والمواعظ وترك التغذي باللحم والدم فآثر العدم والتين فقال :

يقنعني بلسن يمارس لي وإن تسكن حلاوة فبلس
وصد عن الشهوات النفسانية الحيوانية ، وكان يصبو إلى جوهره المصنفي
وهو روحه فيكثر مخاطبتها والبحث فيها ، ويرتقب مفارقتها لجسمه لتعود كما
كانت قبل أن تحل فيه :

الجسم والروح من قبل التقائهما كانا وديعين لاهمّا ولا سقما
تفرد الشيء خير من تألفه بغيره وتجر الإلفة النقا
وكانت (العيسوية) وهي فئة منسوبة إلى أبي عيسى اسحاق بن يعقوب

(١) الملل والنحل ص ١٩٦

(٢) رسائله إلى ، الداعي الفاطمي ط ، السلفية بتصر ١٣٤٩ ص ١١

(٣) الملل والنحل ص ١٧٥

الأصفهاني الذي خرج على المنصور بالرأي فقتله المنصور تحرم أكل الحيوان جميعه ، وكان مذهبها (١) « أن حرمت الذبائح كلها ونهت عن أكل ذى روح على الإطلاق طيراً كان أو بهيمة »

أما أثر الآراء الهندية في مذهب أبي العلاء في النساء والنسل والشهوات الجسدية فقد دل عليه أتباع (قلانوس) الذي كان تلميذاً لفيثاغورس الفيلسوف اليوناني فجاء الهند ونشر فيها مذهبها في التقشف والبعد عن الشهوات حتى أيام الاسكندر في فتحه المشرق ، وقد كانوا يزعمون (٢) « أن لا خير في اتخاذ النساء والرغبة في النسل ولا في شيء من الشهوات الجسدية »

فها هنا تلتقي عصا التحقيق في المنابع التي صدرت عنها نزعات المعرى في نقد المرأة والنسل والزواج . وهي قوام المجتمع . وغير ذلك من نزعاته التي أظهرها لبني عصره ولمن يأتي بعده . فأجد أن أبا العلاء لم يكن مبتكراً لتلك الأفكار وإنما تبناها تبنياً ، وأكثر من اعتناقها حتى عُسر وحده بها ونسبت في العربية اليه . وقد يتسامح علماء تاريخ الأدب في نسبة مذهب إلى من أكثر الادعاء له وشرحه وألف فيه . وإن يك لهذا المذهب نسب معروف في الأفكار العتيقة كذهب الرومانتيك في الأدب الفرنسي فإن (فيكتور هوغو) كان حامل أعلامه في القرن التاسع عشر معروفاً بابتكاره له واعتناقه إياه مع أن أسباب هذا المذهب راسخة في الأدب الروماني العتيق من أيام الشاعر (كاتولوس) وكانت (مدام دوستال) و (شاتوبريان) ينزعان هذه النزعة الإبداعية قبل فيكتور هوغو ولم تنسب إليهما .

وكذلك يخفى في التاريخ أو يهمل ذكر أولئك الأقدمين من فلاسفة اليونان وأصحاب النحل الفارسية والآراء الهندية فيما قالوا وتجادلوا حول

(١) الملل والنحل ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

(٢) الملل والنحل ص ٤٥٧ ، ٤٥٨

المرأة والزواج والنسل وما إلى ذلك من ترك أكل اللحم واعتناق التقشف ،
ويبقى أبو العلاء المعري هو المعروف في تاريخ الأدب العربي بمبدع هذه الآراء
وصاحب تلك النقدرات والنزعات .

وهيئات ، فإنه تلقاها عن غيره ووعاها ، ثم اعتنقها وادعاها . وبهذا
أعود إلى (مارجوليوت) فلا أنكر مثله على أبي العلاء تلقينه أقاويل الفلاسفة
من راهب في دير حين نزل به في اللاذقية